[٥]

## الإنسان و الحيوان

[٧]

بسم الله الرحمن الرحيم

* الإنسان والحيوان:

الإنسان هو نوع من الحيوان، لذا فإنه يشترك كثيرا مع الحيوانات الأخرى، ولكنه يختلف عن أبناء جنسه في عدد من الفروق التي تميزه عن الحيوانات الأخرى، ووهبت له المزية والتسامي، وجعلته لا نظير له.

فاختلاف الإنسان الأساسي مع الحيوانات الأخرى والذي هو ملاك "إنسانيته" وأصبح مصدرا لما يسمى باسم المدنية والثقافة الإنسانية يكمن في ناحيتين: النظرات والنزعات.

تتمتع الحيوانات بصورة عامة بهذه المزية من أنها تدرك أنفسها والعالم الخارجي، وتعي ذلك، وعلى ضوء هذا الوعي والمعرفة تسعى من أجل الوصول إلى رغباتها ومتطلباتها.

[٨]

والإنسان أيضا -كسائر الحيوانات الأخرى- له سلسلة من الرغبات والمتطلبات، وهو في سعى على ضوء وعيه ومعرفته للوصول إلى تلك الرغبات والمتطلبات. وفرقه عن سائر الحيوانات هو في مجال وعيه ومعرفته واتساعهما وانتشارهما، وهو أيضا في سمو مستوى الرغبات والمتطلبات.

هذا ما وهب للإنسان المزيه والسمو، وفصله عن سائر الحيوانات.

* مجال وعي الحيوان ومستوى رغبته:

إن وعي الحيوان بالعالم يأتي عن طريق الحواس الظاهرة فقط. ولذا فهو:

أولا: سطحي وظاهري، ولا ينفذ إلى الباطن وعلاقات الأشياء الباطنية.

ثانيا: فردي وجزئي، فلا يتمتع بالكلية والعموم.

ثالثا: محدود بمنطقة معينة. فهو محدود بمحيط حياة الحيوان، ولا يجد سبيلا إلى خارج محيط حياته.

رابعا: حالي، أي أنه متعلق بزمان الحال، ومنقطع عن الماضي والمستقبل. فالحيوان لا يعرف تاريخ نفسه ولا تاريخ العالم، ولا يفكر حول المستقبل، ولا يتعلق سعيه بالمستقبل.

[٩]

فالحيوان من ناحية الوعي لا يخرج أبدا عن إطار الظواهر، الفردية والجزئية، والمحيط، وزمان الحال. وهو سجين هذه السجون الأربعة إلى الأبد، وإذا خرج أحيانا فليس عن وعي أو شعور أو اختيار. بل تحت تأثير الطبيعة الإجباري، وبصورة غريزية غير واعية ولا شاعرة.

إن مستوى رغبات الحيوان ومتطلباته تشبه مجال معرفته ووعيه بالعالم ضمن حدود خاصة ، فهو:

أولا: مادي، فهو لا يتعدى حدود الأكل والشرب والنوم واللعب، واتخاذ البيت، والتمتع بالجنس المخالف. فالحيوان لا يفهم الرغبات المعنوية، والقيم الأخلاقية وغيرها.

ثانيا: شخصي وفردي، متعلق بنفسه، وإلى حد أكثر بزوجه وفراخه.

ثالثا: محدود بمنطقة معينة، متعلق بمحيط حياته.

رابعا: حالي، متعلق بزمان الحال.

أي أنها نفس الأبعاد التي كانت لوعي الحيوان وإدراكه، وله بعد ذلك متطلبات وتمسكات وجوده. فالحيوان -من هذه الناحية أيضا- سجين في حدود خاصة.

فالحيوان إذا عقب غاية وتحرك نحوها بحيث تكون

[١٠]

خارج هذه الحدود، فمثلا يتعلق بنوع لا بفرد، أو أنه يتعلق بالمستقبل لا بالحال كما يشاهد ذلك في بعض الحيوانات الاجتماعية كنحل العسل، فهو بحكم الغريزة وبدون وعي وبأمر مباشر من القوة التي أبدعته وتدبر العالم.

* مجال وعي الإنسان ومستوى رغبته:

إن منطقة نفوذ الإنسان سواء من ناحية الوعي والنظرة والمعرفة، أو من ناحية الرغبات والمتطلبات هي أوسع وأسمى كثيرا.

فإن وعي الإنسان ومعرفته تجتاز ظواهر الأشياء ومظاهرها، وتنفذ إلى باطن الذات وماهيتها، وعلاقاتها وتبعياتها والضرورات السائدة عليها. فوعي الإنسان لا يبقى سجينا في حدود منطقة أو مكان، ولا توقفه سلسلة الزمان في قيد أو أسر، فهو يطوي المكان والزمان، ولذا فإنه يتعرف على ما وراء المحيط الذي يعيش فيه إلى حد أنه يتطلع إلى معرفة الكواكب الأخرى. ويطلع على ماضيه ومستقبله، ويكتشف تاريخ ماضيه وماضي العالم، أي تاريخ الأرض والسماوات، والجبال، والبحار، والنباتات، والحيوانات الأخرى. ويفكر في المستقبل إلى الآفاق البعيدة. وأكثر من ذلك أن الإنسان يجول بفكرته حول اللاّنهائيات الخالدة، ويتعرف على بعضها. فالإنسان يتخطى المعرفة الفردية

[١١]

والجزئية. ويكتشف القوانين الكلية والحقائق العامة التي تستوعب العالم. وبهذا يقر سيطرته على الطبيعة.

فالإنسان يتمكن من أن يكون له مستوى عال من ناحية الرغبات والمتطلبات، فهو موجود يتطلب القيم، ويريد الهدف وكمال المطلوب، ويبحث عن أهداف غير مادية وليست من أنواع الربح. أهداف لا تختص به لا تختص بزوجته وأولاده على حد أكثر. عامة وشاملة ومستوعبة لجميع أفراد البشر، ولا تتعلق بمحيط أو منطقة خاصة، أو بحقبة معينة من الزمان.

فالإنسان بعيد الهدف إلى حد بحيث تكون قيمة عقيدته وهدفه فوق كل القيم الأخرى، وتكون راحة الناس وخدمتهم أهم من راحته هو. فالشوكة التي تدخل في قدم الآخر كأنها في قدمه، بل كأنها في عينه، يواسي الآخرين بآلامهم، فهو متعلق بعقيدته وهدفه المقدس إلى حد أنه يضحي بمصالحه بل بحياته ووجوده من أجلها بكل بساطة.
فالناحية الإنسانية في المدنية البشرية التي تعتبر روح المدنية هي وليدة مثل هذه الأحاسيس والمتطلبات البشرية.

* ملاك امتياز الإنسان
أن نظرة الإنسان الواسعة حول العالم هي حصيلة جهود جماعة من البشر قد تكدست على بعضها وتكاملت .. خلال
[١٢]
قرون وأعصار. إن هذه النظرة التي أصبحت تخضع لقواعد وضوابط ومنطق خاص، وجدت لنفسها اسم "العلم"، العلم بالمعنى الأعم، يعني مجموع التفكيرات البشرية حول العالم والتي تشمل الفلسفة أيضا، حصيلة جهود جماعة من البشر ولها نظام منطقي خاص.
إن نزعات البشر المعنوية السامية هي وليدة إيمانه واعتقاده وتعلقه ببعض الحقائق في هذا العالم، وتلك الحقائق هي فوق الفردية أيضا، وعامة وشاملة، وما وراء المادية، أي أنها ليست من نوع الفائدة والربح. وأن مثل هذا الإيمان والتعلق -بدوره- وليد بعض النظرات والمعرفة العالمية التي إما أن تكون قد عرضت على البشر من قبل الأنبياء الإلهيين، وإما أن يكون بعض الفلاسفة أراد أن يعرض نوعا من التفكير الذي كان مثارا للإيمان والهدف.
وعلى كل حال، فإن نزعات الإنسان السامية المعنوية واللاحيوانية عندما تجد قاعدة وأساسا عقائديا وفكريا تتخذ لنفسها إسم "الإيمان".
إذا، نستنتج أن الفرق الأصلي بين الإنسان وسائر الحيوانات الذي هو ملاك "إنسانيته" والإنسانية المتعلقة بها هو العلم والإيمان.
وقد قيل كثيرا حول ميزة الإنسان عن الحيوانات الأخرى، فالبعض ينكر الفرق الأساسي بين هذا النوع وسائر الأنواع،
[١٣]
ويعتبر اختلاف وعي الإنسان ومعرفته مع الحيوان من قبيل الاختلاف الكيفي والاختلاف الكيفي على حد أكثر، لا الاختلاف في الماهية. إن كل العجائب والعظمات والأهميات التي جلبت انتباه كبار فلاسفة الشرق والغرب إلى موضوع المعرفة في الإنسان لم تجلب إلى حد ما انتباه هذه الجماعة.
وتعتبر هذه الفئة الإنسان من ناحية الرغبات والمتطلبات حيوانا تاما بدون أقل اختلاف من هذه الناحية(١-أن "هوبز" الفيلسوف البريطاني المعروف له مثل هذه النظرة بالنسبة للإنسان) ويرى البعض الآخر اختلافه في الروح أي أنهم يعتقدون أن الروح والحياة هي منحصرة بالإنسان فقط، وليست للحيوانات الأخرى إحساس أو رغبة أو ألم أو لذة، وأنها آلات بلا روح، والموجود الذي يمتلك الروح هو الإنسان فقط. إذا فتعريفه الحقيقي هو أنه موجود ذو روح(٢-نظرية ديكارت المعروفة). والعلماء الآخرون الذين لا يعتبرون الإنسان الموجود ذا الروح الوحيد في العالم، ويعترفون بالامتيازات الأساسية بينه وبين سائر الحيوانات، فكل فئة منهم قد انتبهوا إلى إحدى خصائص الإنسان وامتيازاته ولذا فإن الإنسان قد وجد تعاريف وتعابير مختلفة مثلا: الحيوان الناطق، الطالب المطلق، لا يتناهى، طالب الهدف، طالب القيم، حيوان ما وراء الطبيعة، لا يقبل الانتهاء، غير معين، ملتزم ومسؤول، ناظر المستقبل، حر ومختار، طالب العدالة، ذو وجهين، العاشق، والمكلف، صاحب الوجدان، ذو ضميرين، مبدع وخلاق، الوحيد، المضطرب، عابد العقيدة، صانع الآلة، طالب الغيب، مبدع
[١٤]
الخيال، المعنوي، مدخل المعنوية. .و.. و..
ومن البديهي فإن كلا من هذه المميزات هي صحيحة في مكانها، ولكن إذا أردنا أن نأتي بتعبير يجمع كل الفروق الأساسية ربما يكون من الأفضل أن نذكر العلم والإيمان، ونقول: أن الإنسان حيوان قد امتاز على سائر الحيوانات الأخرى بامتيازين "العلم والإيمان".
* هل الإنسانية هي البناء؟
علمنا أن الإنسان نوع من الحيوان، ولذا فإن له وجوه اشتراك كثيرة مع سائر الحيوانات، وبنفس الوقت فإن سلسلة من الامتيازات قد ميزته عن سائر الحيوانات.
وقد سببت وجوه اشتراكه مع الحيوان ووجوه امتيازه عنه أن تكون للإنسان حياتان: حياة حيوانية، وحياة إنسانية، وبتعبير آخر: حياة مادية وثقافية.
وهنا تعرض مسئلة وهي أنه ما هي العلاقة بين حيوانية الإنسان وإنسانيته، بين حياته الحيوانية وحياته الإنسانية، بين حياته المادية وحياته الثقافية الروحية؟
[١٥]
هل أن إحدى هاتين أصل والثانية فرع؟ إحداهما أساس والثانية انعكاسها؟ إحداهما قاعدة والأخرى بناء؟ هل أن الحياة المادية هي القاعدة والحياة الثقافية هي البناء؟ هل أن حيوانية الإنسان قاعدة وإنسانيته بناء؟
وإن كان كل ما يعرض اليوم له وجهة اجتماعية لا وجهة نفسية، وتعرض من وجهة نظر علم الاجتماع لا من وجهة نظر علم النفس، ولذا فإن صورة البحث تكون بهذه الصورة:
هل إن المؤسسة الاقتصادية التي تتعلق بالإنتاج والصلات الإنتاجية من بين المؤسسات الاجتماعية هي الأصل والقاعدة وأن سائر المؤسسات الاجتماعية لا سيما المؤسسات التي تجلت فيها إنسانية الإنسان كلها فرع وبناء وانعكاس من المؤسسة الاقتصادية؟ هل كان العلم والفلسفة والأدب والدين والقانون والأخلاق والفن في كل دور مظاهر للواقعيات الاقتصادية، ولم يكن لها أصالة لذاتها؟
نعم، إن ما يعرض يعرض بهذه الصورة، ولكن البحث العلمي الإجتماعي هذا تظهر له نتيجة نفسانية، وينجر إلى بحث فلسفي حول الإنسان وواقعه وأصالته، والذي يدعي اليوم باسم "أصالة الإنسان" أو "هيومنيسم"، وهو أن إنسانية الإنسان لا أصالة لها بأي وجه، وحيوانيته فقط هي التي لها أصالة، فالإنسان لا يتمتع بأصالة باسم "الإنسانية"
[١٦]
في مقابل حيوانيته، أي تؤيد نظرة تلك الفئة التي تنكر الاختلاف الأساسي بين الإنسان والحيوان.

ووفقا لهذه النظرة لم تنكر أصالة النزعات الإنسانية من النزعة الحقيقة، والنزعة الخيرية، ونزعة الجمال، والنزعة الالهية فحسب، بل تنكر أيضا وأصالة النزعة الواقعية من نظر الإنسان حول العالم والواقع، لأن أي نظرة لا يمكن أن تكون نظرة مجردة فقط، وحيادية، فإن كل نظرة تعكس نزعة مادية خاصة، ولا يمكن أن تكون غير هذا.

والغريب أن بعض المدارس التي تعكس مثل هذا الرأي هي بنفس الوقت تهتف بالإنسانية. وأصالة الإنسان!

والحقيقة هي أن سير الإنسان التكاملي يبدأ من الحيوان ويكمل باتجاه الإنسانية. وهذه القاعدة تصدق على الفرد وعلى المجتمع أيضا. فالإنسان في بادئ وجوده جسم مادي، ويتبدل في حركته التكاملية بالروح أو الجوهر الروحاني، وتتولد "روح الإنسان" في حجر جسمه وتتكامل كما هو ميزة التكامل، فإن الموجود المتكامل -بأية نسبة يتكامل يكون مستقلا وقائما بذاته، وسائدا ومؤثرا بمحيطه، وأن إنسانية الإنسان سواء كانت في الفرد أو المجتمع وبأية نسبة تتكامل فهي تخطو نحو الاستقلال والسيادة على سائر الجوانب. وأن الفرد الإنساني المتكامل هو الذي يسيطر سيطرة نسبية على محيطة الخارجي والداخلي. والفرد المتكامل يعني المنفصل عن

[١٧]

سيادة المحيط الخارجي والداخلي والمتصل بالعقيدة والإيمان.

ويتم تكامل المجتمع بتلك الصورة نفسها التي تم فيها تكامل الروح في حجر الجسم وتكامل إنسانية "الفرد" في حجر حيوانيته. وأن نطفة المجتمع البشري تنعقد غالبا مع المؤسسات الاقتصادية، وأن جوانب المجتمع الثقافية. هي بمنزلة روح المجتمع. فكما أن هناك تأثير متقابل بين الجسم والروح(١-للحكماء الإسلاميين قاعدة في الصلة المتقابلة بين الروح والبدن ويعبر عنها بهذه العبارة: "النفس والبدن يتعاكسان إيجابا واعدادا".) فإن مثل هذه العلاقة قائمة بين روح المجتمع وهيكلة أي بين مؤسساته المعنوية ومؤسساته المادية. فكما أن سير الفرد التكاملي نحو الحرية والاستقلال والسيادة غالبا ما يكون الروح فكذلك سير المجتمع أيضا. أي أن مجتمع الإنسان مهما تكامل بصورة أكثر تظهر له حياة الاستقلال الثقافية والسيادة بصورة أكثر على حياته المادية. فالإنسان القادم حيوان ثقافي، لا حيوان اقتصادي. الإنسان القادم إنسان العقيدة والإيمان والمذهب. لا إنسان البطن والحجر.

وبالطبع فإن هذا لا يعني أن المجتمع البشري يتحرك بالجبر والضرورة خطوة خطوة، وعلى خط مستقيم نحو كمال القيم الإنسانية. وأن المجتمع الإنساني من هذه الناحية يخطو

[١٨]

خطوة متقدمة على المرحلة السابقة في كل مراحل الزمان. ومن الممكن أن يطوي البشر دوراً من الحياة الاجتماعية ربما تكون قد انجرفت نحو الانحطاط مرحلة أو مراحل من ناحية المعنويات الإنسانية مع كل التقدم الفني والتكنيكي بالنسبة للماضي، كما يقال لذلك اليوم بالنسبة لبشر عصرنا.

بل هو يعني أن البشر في مجموع حركاته يتقدم إلى الإمام من الناحية المادية والناحية المعنوية، ولم تكن حركة البشر التكاملية من الناحية المعنوية حركة واحدة على خط مستقيم، إنها حركة تنحرف تارة إلى اليمين وتارة إلى اليسار، ولها وقفة ورجوع أحيانا، ولكنها في مجموعها حركة متقدمة وتكاملية، ولهذا نقول: إن إنسان المستقبل حيوان ثقافي لا حيوان اقتصادي ، إنسان المستقبل إنسان عقيدة وإيمان لا إنسان بطن وحجر.

ووفقا لهذه النظرية فإن جانب الإنسان الإنساني قد تكامل برفقة -بل متقدما على- تكامل آلاته الإنتاجية بسبب أصالته، وعلى أثر التكامل فقد حد من تبعيته وتأثره بالمحيط الطبيعي والاجتماعي وأضاف إلى انفصاله الذي يساوي اتصاله بالعقيدة الهدف والمذهب والفكرة، وأيضا تأثيره على المحيط الطبيعي والاجتماعي، وسوف يصل بصورة أكثر في المستقبل إلى الحرية المعنوية الكاملة أي الاستقلال والاتصال بالعقيدة والإيمان والفكرة. كان الإنسان في الماضي أسير

[١٩]

الطبيعة ورقها وأسير حيوانيته ورقها بصورة أكثر مع أنه قل ما كان يتمتع بمواهب الطبيعة ومواهبه، ولكن إنسان المستقبل بنفس الوقت الذي يتمتع فيه بصورة أكثر بمواهبه وبالطبيعة فأنه سيكون أكثر حرية من أسر الطبيعة وأسر قواه الحيوانية، وسيضيف إلى سيادته على نفسه وعلى الطبيعة.

بناء على هذه النظرية، فالواقع الإنساني، مهما بدافع تكامله الحيواني والمادي وفي حجره، فإنه لم يكن في أي وقت من الأوقات ظلا أو انعكاسا أو تابعا لتكامله المادي، إنه واقع مستقل متكامل. فكما أنه يتأثر من الجوانب المادية فإنه يؤثر فيها. والذي يقرر مصير الإنسان النهائي هو سير ثقافته التكاملي الأصيل، أو واقعة الإنساني الأصيل، لا سير آلات الإنتاج التكاملي. هذا واقع إنسانية الإنسان الأصيل الذي يستمر في حركته ويكمل آلات الإنتاج مع سائر شؤون الحياة الأخرى، لا أن آلات الإنتاج تتكامل تلقائيا، وأن إنسانية الإنسان تتطور وتتغير كآلاته التي توجه نظام الإنتاج، ولذا فإن له اسم التكامل لأنه يوجه نظاما إنتاجيا متكاملا بصورة أكثر.

إن "ويل دورانت" كاتب "تاريخ التمدن" المعروف مع أنه لا ديني يقول: "إن الفرق بين العالم القديم والعالم الآلي الحديث بالآلات فقط لا بالأغراض ... ماذا تقولون: إذا كان جميع تقدمنا من أجل إصلاح الأساليب والآلات لا

[٢٠]

تحسين الغايات والأغراض ؟" (١- "لذات فلسفة" ص ٢٩٢)

ويقول أيضاً:

"إن الثورة متعبة، والعقل والحكمة نور ضعيف بارد، ولكن الحب هو الذي يدفئ القلوب بهيمنة خارجة عن حدود البيان" (٢- "لذات فلسفة" ص ١٣٥).

والغالب قد أدرك لليوم أن "السيانتيسم" النظام العلمي المحض والتربية العلمية الخالصة عاجزان عن بناء الإنسان الكامل، فالتربية العلمية الخالصة تبني نصف إنسان لا إنسانا كاملا، وحصيلة هذه التربية هي المادة الخام للإنسان "الإنسان المصنوع فهي تصنع إنسانا قويا وقادرا لا إنسانا فاضلا. تصنع إنسانا ذا جانب واحد، لا إنسانا متعدد الجوانب. وقد أدرك الجميع اليوم أن عصر العلم المحض قد انتهي، وهناك فراغ الهدف يهدد المجتمعات، كما يريد البعض أن يملأ هذا الفراغ بالفلسفة المحضة، وتعلق البعض بأذيال الأدب والفن والعلوم الإنسانية، وفي بلدنا أيضا تعرض إلى حد ما الثقافة الإنسانية لاسيما الأدب العرفاني من قبل أدب "مولوي" و "سعدي" و"حافظ" لسد هذا الفراغ المعنوي الهدفي. غافلين عن أن هذا الأدب قد أخذ روحه وجاذبيته من الدين.

[٢١]

إن روح هذا الأدب الإنساني هي تلك الروح الدينية الإسلامية، وإلا فلماذا أصبح بعض أقسام الأدب الحديث باردا لا روح ولا جاذبية فيه إلى هذا الحد مع تظاهره بالإنسانية. إن المحتوى الإنساني لأدبنا ناتج من نوع من التفكير حول الإنسان والعالم وهو نفس التفكير الإسلامي، ولو أخذنا الروح الإسلامية عن هذا الأدب الرائع لا يبقى منه سوى حثالة وهيكل ميت.

وإن "ويل دورانت" هو من الأشخاص الذين يشعرون بهذا الفراغ، ويقترح سده بالأدب والفلسفة والفن، فيقول:

"أن الضرر والخسارة التي وردت على مدارسنا وجامعاتنا كان أكثرها من نظرية "اسبنسير" التربوية(١- الفيلسوف البريطاني المعروف في القرن التاسع عشر)، الذي عرف التربية بتلاؤم الإنسان مع محيطه. إن هذا التعريف تعريف ميت وميكانيكي، وقائم على فلسفة "الأفضلية الميكانيكية"، ويمجه كل ذهن وروح مبدعة، ونتيجة ذلك أصبحت مدارسنا مليئة بالعلوم النظرية والميكانيكية، وفارغة من مواضيع الأدب والتاريخ والفلسفة والفن التي لا فائدة فيها على حد تعبيرهم ... إن التربية العلمية المحضة لا حصيلة لها سوى الآلات، تجعل الشخص غريبا عن الجمال وتفصله عن الحكمة، وكان من الأفضل للعالم ألا يكتب "اسبنسي " كتابا(٢- "لذات فلسفة" ص ٢٠٦).

[٢٢]

من العجيب أن "ويل دورانت" مع أنه يعترف أن الفراغ الموجود هو فراغ هدفي، فراغ باتجاه المقاصد والغايات والأهداف، فراغ قد انتهى إلى نظام فارغ، مع أنه يعترف بأن هذا الفراغ نوع من التفكير ونوع من الإيمان بالمقاصد والأهداف الإنسانية، ومع كل ذلك يظن أنه يتوافق مع أي نوع من المعنويات وإن كانت لا تتعدى قوة التخيل، يظن أن الانشغال بالتاريخ والفن والجمال والشعر والموسيقي يتمكن من سد مثل هذا الفراغ الناتج من عمق فطرة طالب الهدف وكمال مطلوب الإنسان.

* خلافة العلم والإيمان

علمنا بأن العلم والإيمان أنهما لم يكن بينهما تضاد فحسب، بل هما متممان ومكملان لبعضهما. وهنا يعرض سؤال آخر. هل يمكن أن يملأ كل منهما مكان الآخر ؟

بعد أن عرفنا ما هو دور العلم، وما هو درو الإيمان، لا حاجة ماسة في عرض هذا السؤال والإجابة عليه. ومن البديهي لا العلم يتمكن من أن يكون خليفة الإيمان بحيث يهب الحب والأمل بالإضافة إلى النور والقوة، ويرتقي بمستوى رغباتنا، وبالإضافة إلى أنه يمدنا للوصول إلى المقاصد والأهداف وطي الطريق إلى تلك المقاصد والأهداف، فإنه يسلب منا المقاصد والأهداف والرغبات التي تدور بحكم

[٢٣]

الطبيعة والغريزة حول محور الفردية والأنانية، ويعطينا بدلا من ذلك مقاصد وأهدافا تدور حول محور الحب والعلاقات المعنوية والروحانية، وبالإضافة إلى أنه آلة بيدنا فإنه يغير جوهرنا وماهيتنا. ولا الإيمان يتمكن من أن يكون خليفة جوهرنا وماهيتنا. ولا الإيمان يتمكن من أن يكون خليفة العلم، ويعلمنا بالطبيعة، ويكشف لنا قوانينها، ويعرفنا بأنفسنا.

وقد أثبتت التجارب التاريخية أن فصل العلم والإيمان قد أدى إلى أضرار لا يمكن تعويضها يجب معرفة الإيمان على ضوء العلم، والإيمان يبتعد من الخرافات في نور العلم، وبفصل العلم عن الإيمان يتحول الإيمان إلى الجمود والتعصب الأعمى، والدوران بشدة حول نفسه، وعدم الوصول إلى مكان والمكان الفارغ من العلم والمعرفة ينقلب فيه المؤمنون الجهلة إلى آلة بيد كبار المنافقين، والذي رأينا ونرى نماذج منهم في خوارج صدر الإسلام والأدوار التي تلت بصور مختلفة.

والعلم بلا إيمان سيف بيد زنجي سكران، وسراج في منتصف الليل بيد لص لسرقة أفضل البضائع، ولهذا فإن الإنسان العالم بلا إيمان اليوم لا يختلف عن الجاهل بلا إيمان في الأمس أقل اختلاف من حيث طبيعة الأساليب والأفعال وماهيتها. أي اختلاف يوجد بين أمثال تشرشل، وجانسون، ونيكسون، واستالين اليوم، وبين الفراعنة وأمثال جنكيز وآتيلا بالأمس؟

[٢٤]

من الممكن أن يقال ألم يكن العلم نورا وقوة؟ إن نورانية العلم وقوته لا تختص بعالم الخارج، إنه ينير لنا ويرينا عالمنا الداخلي أيضا، وبالنتيجة فإنه يجعلنا قادرين على تغيير عالمنا الداخلي أيضا. إذاً فالعالم يتمكن من بناء العالم وبناء الإنسان أيضا، فهو يقوم بعمله (بناء العالم) ويقوم بعمل الإنسان (بناء الإنسان) أيضا.

والجواب هو أن كل هذه الأمور صحيحة. ولكن النقطة الأساسية هي أن قوة العالم وقدرته هي من نوع قوة الآلة وقدرتها. أي أن لها صلة بإرادة الإنسان وأمره. فالإنسان عندما يريد إنجاز عمل في أي ناحية يمكنه أن ينجزه بواسطة آلات العلم بصورة أفضل. ولهذا نقول: إن العلم أفضل مساعد للإنسان للوصول إلى المقصد وطي الطرق التي اختارها الإنسان للسلوك.

ولكن الكلام في مكان آخر، الكلام في أن الإنسان عين المقصد قبل تشغيله الآلة. وأن الآلات تستخدم دائما في طريق المقاصد. من أين ظهرت المقاصد؟ فالإنسان بما أنه حيوان بالطبع وإنسان بالاكتساب أي يجب أن تهذب قابليات الإنسان الإنسانية بالتدرج في ضوء الإيمان، فهو بطبيعته يتحرك باتجاه مقاصده الطبيعية الحيوانية الفردية المادية الأنانية، ويستخدم الآلات في هذا الطريق، ولهذا فهو محتاج إلى قوة لا تكون آلة الإنسان وقصده، بل تسوق الإنسان إلى

[٢٥]

جهتها كالآلة، يحتاج إلى قوة تفجر الإنسان من داخله وتدفع قابلياته الداخلية إلى النشاط، يحتاج إلى قوة تتمكن من إيجاد ثورة في ضميره، وتعطيه اتجاها جديدا، وهذا عمل لا يتمكن عليه العلم وكشف القوانين السائدة على الطبيعة والإنسان، ومثل هذا التأثير هو وليد تقدس بعض القيم وارتفاع ثمنها في روح الإنسان وهو بنفسه وليد عدد من النزعات السامية في الإنسان، وتلك النزعات هي بدورها ناتجة من انطباع خاص وطراز تفكير خاص حول العالم والإنسان بحيث لا يمكن الحصول عليها في المختبرات ولا من محتوى القياسات والاستدلالات، وتلك الانطباعات هي تلك التي سوف نوضح في المستقبل بأنها خارجة عن متناول العلم.

وقد أثبت تاريخ الماضي والحاضر ما ينتج عنه فصل العلم عن الإيمان، فمحاولات الأفراد الإنسانية في المكان الذي كان فيه الإيمان ولم يكن العلم قد بذلت في أمور لم تنتج كثيرا أو لم تنتج إنتاجا طيبا أحياناً، وقد أصبحت أحيانا مثارا للعصبيات والجمود، والتنازع المضر أحيانا أخرى. وتاريخ البشر الماضي مليء بمثل هذه الأمور.

فالمكان الذي كان العلم فيه وبقي مكان الإيمان فارغا يشبه بعض مجتمعات العصر الحاضر حيث بذلت جميع الطاقات العلمية في سبيل الأنانيات وطلب الزيادات، والأفضليات، والاستثمارات والاستعبادات والحيل والمكر.

[٢٦]

ومن الممكن اعتبار القرنين أو الثلاثة الماضية عصر عبادة العلم والهروب من الإيمان. واعتقد الكثير من العلماء أن جميع مشاكل الإنسان سوف تنحل بطرف إصبع العلم، ولكن التجربة أثبتت عكس ذلك، فلا يوجد اليوم عالم بحيث ينكر حاجة الإنسان إلى نوع من الإيمان حتى ولو كان إيمانا غير ديني والذي هو أمر فوق العلم على كل حال. ويعترف "بيرتراند رسل" مع نزعاته المادية بأن:

"العمل الذي يكون الغرض منه الدخل، لا تكون نتيجته مفيدة، ولمثل هذه النتيجة يجب اتخاذ عمل يختفي فيه "الإيمان" بشخص، بهدف أو بغاية "(١- بيرتراند رسل:"زناشوئي مقدماتي وأخلاق").

فالماديون اليوم مضطرون إلى الإدعاء بأننا ماديون من الناحية الفلسفية، وهدفيون من الناحية الأخلاقية. أي أننا ماديون من الناحية النظرية، وهدفيون معنويون من الناحية العملية(٢- جورج بوليستر: "أصول مقدماتي فلسفة"). وكيف يمكن أن يكون الإنسان ماديا من الناحية النظرية ومعنويا من الناحية العملية، فهذا سؤال على الماديين أنفسهم أن يجيبوا عليه.

[٢٧]

إن "جورج سارتن" العالم العالمي الشهير، وكاتب كتاب "تاريخ العلم" المعروف، يعبر في كتابه "شش بال" (ست أجنحة) عن قصور العلم وعجزه في جعل علاقات البشر إنسانية، وحاجة الإنسان الفورية إلى قوة الإيمان كما يلي:

"قام العلم في بعض المجالات بتسام عظيم وعجيب، ولكن في المجالات الأخرى كالسياسة الوطنية والدولية التي تتصل بعلاقات أفراد الإنسان ببعضهم لا زلنا نضحك على أنفسنا"(٣- جورج سارتن: "شش بال").

ويعترف جورج سارتن بأن الإيمان الذي هو موضع حاجة الإنسان هو الإيمان الديني أو المذهبي، ويقول حول حاجة الإنسان إلى مثلث الفن والدين والعلم كما يلي:

"إن الفن يظهر الجمال، وتكون هذه الجهة سببا في سرور الحياة. والدين يجلب الحب فهو موسيقى الحياة. والعلم يتعامل مع الحق والصدق والعقل، ويكون سببا في ذكاء النوع البشري، ونحن محتاجون إلى هذه الثلاثة، إلى الفن وإلى الدين وإلى العلم أيضا، والعلم بصورة مطلقة واجب للحياة، ولكنه لا يكفي لوحده"(٤- "شش بال" ص ٣٠٥).

[٢٩]

الإيمان الديني

[٣١]

الإيمان الديني

وقد اتضح من البحوث السابقة أن الإنسان لا يتمكن من الحياة السليمة أو أنه ينجز عملا مفيدا مثمرا للإنسانية والمدنية الإنسانية بلا أن تكون له فكرة وهدف وإيمان، فالإنسان الفاقد للفكرة والإيمان إما أن يكون بصورة موجود غارق في الأنانية بحيث لا يخرج أبدا من حيز مصالحة الشخصية وأما أن يكون بصورة موجودة متردد حائر لا يعرف واجبه في الحياة والقضايا الأخلاقية والاجتماعية. ويضطر إلى إبداء رد فعل خاص في مقابل هذه القضايا. فالإنسان يجابه دائما القضايا الأخلاقية والاجتماعية ويضطر إلى إبداء رد فعل خاص في مقابل هذه القضايا. فالإنسان إذا كان متصلا بمدرسة أو عقيدة أو إيمان فإن واجبه يقضي حياته مترددا دائما، ويجتذب إلى هذه الجهة تارة وإلى تلك الجهة تارة أخرى. فيكون موجودا غير متناسق. نعم، لا شك في قاعدة الالتحاق بمدرسة أو فكرة.

والذي يجب أن يكون موضع اهتمام هو أن الإيمان

[٣٢]

الديني الوحيد الذي يتمكن من أن يجعل الإنسان بصورة "مؤمن" واقعي، فيضع الأنانية وحب الذات تحت شعاع الإيمان والعقيدة والمذهب، ويوجد نوعا من "التعبد" و "التسليم" عند الشخص أيضا بحيث لا يسمح الإنسان للشك سبيلا في نفسه في أقل موضوع تعرضه المدرسة. ويجعله أيضا بصورة شيء عزيز ومحبوب وقيّم، إلى حد أن تكون الحياة له بدونه تافهة ولا شيء ولا معنى لها. ويدافع عنه بنوع من الغيرة والتعصب.

والنزعات الإيمانية الدينية تؤدي إلى أن يقوم الإنسان بجهود رغم نزعاته الطبيعية الفردية، ويضحي بوجود وحيثيته في سبيل إيمانه أحيانا. وهذا يتيسر في حال تجد فيه فكرة الإنسان حالة قدسية، وسيادة مطلقة على وجود الإنسان. والقوة الدينية فقط هي التي تتمكن من أن تهب القدسية للأفكار، وتجعل حكمها نافذا على الإنسان بقدرة تامة.

ويقوم الأشخاص أحيانا بالتضحية وترك الروح والأموال وجميع حيثيتهم لا عن طريق الفكرة والعقيدة الدينية بل تحت ضغط العقد والأحقاد وطلب الإنتقام، وبالتالي رد الفعل الشديد أمام الشعور بالضغط والظلم، كما نرى نظائر ذلك هنا وهناك في العالم.

ولكن اختلاف الفكرة الدينية وغير الدينية هي عندما تتوسط العقيدة الدينية، وتهب الفكرة القدسية، تكون

[٣٣]

التضحيات برضا تام وبصورة طبيعية، وفرق بين أن يتم العمل عن رضا وإيمان الذي هو نوع من الاختيار، وبين العمل الذي يتم تحت تأثير العقد والضغوط الباطنية المؤلمة وهو نوع من الانفجار.

ثانيا:

إذا كانت نظرة الإنسان للعالم نظرة مادية صرفة للعالم وعلى أساس تحديد الواقع في المحسوسات، فعندئذ يشعر الإنسان في علاقته مع العالم بأن كل نوع من حب الفكرة وتعقيب الهدف الإجتماعي والإنساني بعكس الواقعيات المحسوسة.

ونتيجة النظرة الحسية للعالم هي حب الذات لا حب الفكرة، إن حب الفكرة إذا لم يكن على أساس النظرة للعالم والتي نتيجتها المنطقية هي الفكرة، فلا يتعدى حب الخيال. أي على الإنسان أن يصنع عالما من خياله منفصلا عن الواقعيات الموجودة في داخله، ويأنس بذلك، ولكن حب الفكرة إذا كان ناتجا عن الدين أو المذهب، يعتمد على نوع من النظرة للعالم والتي تكون نتيجتها المنطقية نظرة للعالم تابعة للأفكار والأهداف الاجتماعية. فالإيمان الديني صلة حميمة بين الإنسان والعالم، وبعبارة أخرى هو نوع من التناسق بين الإنسان وأهداف العالم الكلية. وأما الإيمان والأهداف غير الدينية هي نوع من القطع عن العالم، وبناء عالم خيالي لنفسه، والذي لا يؤيد بأي وجه من عالم الخارج.

[34]

فالإيمان الديني لا يعين للإنسان سلسلة من التكاليف رغم رغباته الطبيعية، بل إنه يغير صورة العالم في نظر الإنسان، ويعرض عناصر بالإضافة إلى العناصر المحسوسة في هيكل العالم، ويحول العالم الجاف البارد الميكانيكي المادي إلى عالم حي واع ذي شعور. والإيمان الديني يغير في انطباع الإنسان عن العالم والخلقة.

يقول "وليم جيمس" الفيلسوف والعالم النفساني الأمريكي في أوائل القرن العشرين:
"أن العالم الذي يعرض علينا فكرة دينية لم يكن ذلك العالم المادي الذي تغيرت صورته فحسب، بل توجد أشياء في هيكل ذلك العالم أكثر مما يكن أن تكون لشخص مادي(١- ويليم جيمس: دين وروان.)".
وبغض النظر عن هذه كلها فإن الاتجاه نحو الحقائق والواقعيات مقدس ويستحق العبادة في جبلة كل فرد من أفراد البشر، فالإنسان مركز لعدد من الرغبات والقابليات غير المادية، ولم تكن نزعات معنوية تلقينية واكتسابية صرفة. إنها حقيقة يؤيدها العالم.
يقول ويليم جيمس:
"مهما كانت دوافع رغباتنا ومحركها قد نبعت من هذا
[٣٥]
العالم، فإن أغلب رغباتنا وأمنياتنا نبعت من عالم ما وراء الطبيعة، لأن أغلبها لا يتفق والمقاييسات المادية"(١- ويليم جيمس: دين وروان.).
ولما كانت هذه الرغبات موجودة يجب أن تربى، وإذا لم تلاق التربية الصحيحة، ولم تستخدم بصورة صحيحة، تكون في مسير منحرف، وتؤدي إلى أضرار لا تتصور، كما أن عبادة الأصنام، عبادة الإنسان، عبادة الطبيعة، وآلاف العبادات الأخرى كلها معلولة لهذا المسير.
يقول "أريك فروم":
"لا يوجد شخص لا يحتاج إلى دين، ولا يريد حدود الطلب الإتجاه وموضوعا لتعلقه، أنه من الممكن ألا يكون مطلعا على العقائد غير الدينية، من مجموعة معتقداته باسم الدين الممتاز، ومن الممكن أن يفكر بالعكس بألا دين له، ويعتبر معنى تعلقه بالغايات غير الدينية ظاهرا كالسيطرة والمال أو التمتع علامة للتعلق بالأمور العملية الموافقة للمصلحة فقط. وليس الموضوع من أجل أن الإنسان له دين أو لا دين له، بل أي "دين" له"(٢- أريك فروم: روانكاوي ودين.).
ومقصود هذا العالم النفساني هو أن الإنسان لا يستطيع العيش دونما تقديس وعبادة، وبالفرض أنه لا يعرف الله الأحد ولا يعبده، فسوف يصنع شيئا آخر باعتباره لحقيقة
[٣٦]
الفضلى، ويجعله موضوع إيمانه وعبادته.
إذاً لما كان من الضرورة أن يكون للبشر فكرة وهدف وإيمان ومن جهة أن الإيمان الديني هو الإيمان الوحيد الذي يتمكن من أن يجعل الإنسان تحت سيطرته الواقعية، ومن جهة أخرى فالإنسان بحكم جبلته يبحث عن شيء يقدسه، ويعبده فالطريق الوحيد هو أن نقوي الإيمان الديني.
فالقرآن الكريم هو أول كتاب يجعل الإيمان الديني بصراحة تامة:
أولا: يجعله نوعا من التناسق مع جهاز الخلقة {أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ}(آل عمران/٨٣).
ثانيا: عرفه جزء من جبلة الإنسان: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ}(الروم/٣٠).

* آثار الإيمان وفوائده :
ومهما اتضح آثار الإيمان الديني مما قلناه إلى حد، ولأجل أن نتعرف بصورة أفضل على الآثار الحسنة لهذا "عنصر الحياة القيم" وهذا "الملك المعنوي" نعرض هذا البحث ونعنونه بصورة مستقلة.
[37]
يقول "تولستوي" الكاتب الروسي المفكر:
"الإيمان الحكيم ناصر خسر و العلوي مخاطبا ابنه:
" اتجهت من الدنيا نحو الدين لأن العالم بلا دين هو بئر لي وسجن يا بني، إن لي ملكا في القلب سوف لا يتدمر أبدا".
إن الإيمان الديني له آثار حسنة وكثيرة سواء كان من ناحية إيجاد البهجة والانشراح، أو من تحسين العلاقات الاجتماعية، أو من ناحية الحد أو إزالة المزعجات الضرورية الملازمة لبناء هذا العالم، والآن نوضح آثار الإيمان الديني في هذه الأقسام الثلاثة:
أ - البهجة والانشراح:
إن أول آثار الإيمان الديني من ناحية البهجة والانشراح هو "التفاؤل": التفؤل بالعالم والخلقة والوجود. إن الإيمان الديني لما كان يهب شكلا خاصا لفهم الإنسان عن العالم بحيث يعرف الخلقة ذات هدف ، والهدف خيرا وتكاملا وسعادة، فبالطبع يجعل نظرة الإنسان متفائلة بالنسبة لنظام الوجود الكلي والقوانين السائدة عليه. إن حالة الفرد مع الإيمان في بلد الوجود تشبه حالة شخص يعيش في بلد يعتبر قوانين ذلك البلد وأنظمته وتشكيلاته صحيحة وعادلة. ويؤمن أيضا بصدق نية مدراء البلد الأصليين،
[38]
ولابد أن يرى مجال السمو والرقي مهيئا لنفسه والجميع الأفراد الآخرين، ويعتقد -بأن الشيء الوحيد الذي يمكن أن يؤدي إلى تأخيره هو كسله وعدم تجربته هو وأمثاله من المكلفين المسؤولين.
وفي رأي مثل هذا الشخص أن المسؤول عن التأخير هو نفسه. لا أنظمة البلد وتشكيلاته، وكل نقص موجود جاء من عدم قيامه هو وأمثاله بواجباتهم ومسؤولياتهم. وبالطبع فإن هذه الفكرة تحرك فيه الغيرة، وتدفعه إلى الحركة بالتفاؤل والأمل.
ولكن الشخص الذي لا إيمان له في بلد الوجود يشبع شخصا يعيش في بلد يعتبر قوانين البلد وتشكيلاته ومؤسساته فاسدة وظالمة، ولا بد له من قبولها، فباطن مثل هذا الشخص مليء بالعقد والحقد، ولا يفكر بإصلاح نفسه أبدا، بل يفكر أنه لما كانت الأرض والسماء على غير تمهيد فسائر أنحاء الوجود ظلم وجور وخطأ، وأي أثر لصواب ذرة مثلي؟! ومثل هذا الشخص لا يتلذ بالعالم أبدا، والعالم بالنسبة له كالسجن الرهيب، ولهذا يقول القرآن الكريم: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا}(طه/١٢٤).
نعم: أنه الإيمان الذي يوسع الحياة علينا في باطن أرواحنا ويمنع من ضغط العوامل النفسية.
والاثر الثاني من آثار الإيمان الديني من ناحية البهجة

والإنشراح هو "تنور القلب" عندما يرى الإنسان العالم نيرا بنور الحق بحكم الإيمان، فنظرة النور هذه تنير فضاء روحه، وتظهر بحكم السراج الذي تنور في باطنه، بعكس الشخص الذي لا إيمان له فإنه يرى العالم تافهاً، مظلماً، فارغاً من الفهم والنظرة والنور.
والأثر الثالث من آثار الإيمان الديني من ناحية البهجة والانشراح هو "الأمل" بالنتيجة الطيبة للجهد الطيب.
والعالم من ناحية المنطق المادي يبقي على الحياد وبدون اهتمام بالنسبة للناس الذين يسيرون في طريق الحق أو الباطل، طريق العدل أو طريق الظلم، طريق الصواب أو طريق الخطأ ونتيجة عملهم لها صلة بشيء واحد هو "مقدار الجهد" فقط.
ولكن العالم في منطق الفرد صاحب الإيمان لم يكن على حياد وبدون اهتمام بالنسبة لوجود الطرفين، ولم يكن رد فعل العالم واحد أمام هذين النوعين من السعي، بل أن جهاز الخلقة يقوم بحماية الناس الساعين في سبيل الحق والحقيقة والصواب والعدالة وحب {..إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ}(محمد/٧)، {..إِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}(التوبة/١٢٠)، (هود/١١٥)، (يوسف/٩٠).

[٤٠]

الأثر الرابع من آثار الإيمان الديني من ناحية البهجة والانشراح هو راحة البال، فالإنسان يبحث عن سعادته بالفطرة، ويغرق في السرور من تصور الوصول إلى السعادة، ويرتعش من فكرة مستقبل مشؤوم مقرون بالحرمان، ويضطرب ويخاف بشدة، وسبب سعادة الإنسان شيئان:

١- السعي

٢- الثقة بظروف المحيط.

إن نجاح الطالب يتوقف على شيئين: سعيه وجهده، ثم محيط المدرسة المساعد والملائم مع تشجيع أولياء المدرسة وترغيبهم. فالطالب المجتهد المجد إن لم يعتمد على المحيط الذي يدرس فيه، والمعلم الذي يضع له الدرجة في نهاية السنة. يبق قلقا من جراء المعاملة غير العادلة فإن القلق والخوف يستولي على جميع وجوده طيلة السنة.
إن واجب الإنسان مع نفسه واضح، فلم يحصل قلق من هذه الناحية. لأن القلق يظهر من الشك والتردد، فالإنسان لايشك ولا يتردد بما يتصل بنفسه، فالذي يدفع الإنسان إلى القلق والاضطراب ولا يرى واجبه واضحا تجاهه هو العالم.
هل إن العمل الجيد يجدي نفعا؟ هل إن الصدق والأمانة شيء تافه؟ هل إن الحرمان هو نهاية جميع الجهود وإنجاز الواجبات؟ وهنا يظهر الرعب والقلق في أرهب صورة.

[٤١]

فالإيمان الديني يهب الإنسان باعتباره طرفا في المعاملة والاعتماد والثقة بالنسبة للعالم الذي هو الطرف الآخر في المعاملة. ويزيل الرعب والقلق بالنسبة لسلوك العالم في مقابل الإنسان، ويعطيه -بدلا من ذلك- راحة البال، ولهذا نقول: إن إحدى آثار الإيمان الديني هو راحة البال.
والأثر من آثار الإيمان الديني من ناحية البهجة والانشراح هو التمتع الأكثر بعدد من اللذات التي تسمى باللذة المعنوية. فالإنسان له لذتان: النوع الأول من اللذات هو ما يتعلق بأحد حواس الإنسان والذي يحصل على أثر نوع من الإتصال بين عضو من الأعضاء مع المواد الخارجية كلذة العين في طريق النظر، والأذن عن طريق السمع، والفم عن طريق الذوق، والأصابع عن طريق اللمس.
والنوع الآخر من اللذات ما يرتبط بروح الإنسان وضميره حتى الأعماق، ولا علاقة له بأي عضو معين، ولا يحصل على أثر اتصال بالمادة الخارجية، كلذة الإنسان بالإحسان والخدمة، أو المحبوبية والاحترام ، أو بنجاحه أو نجاح ولده، وهي لا تتعلق بعضو معين، ولا تتأثر بعمل مادي خارجي بصورة مباشرة.
واللذائذ المعنوية هي أقوى وأدوم من اللذائذ المادية. ولذة التعبد وعبادة الله بالنسبة للعرفاء وعشاق الحق هي من هذا القبيل من اللذائذ، فالعباد العرفاء الذين توائم عبادتهم

[٤٢]

حضور القلب والخضوع والاستغراق في العبادة يتمتعون بأعظم اللذائذ من العبادة، وقد ذكر بلغة الدين به "طعم الإيمان" و"حلاوة الإيمان"، إن للإيمان حلاوة فوق كل حلاوة وتتضاعف اللذة المعنوية عندما تنتج الإعمال من قبيل طلب العمل، الإحسان، الخدمة، النجاح، والإنتصار، من الشعور الدين ، وتنجز من أجل الله، وتحسب في نطاق "العبادة".

ب- دور الإيمان في تحسين العلاقات الإجتماعية:

خلق الإنسان اجتماعيا مثل بعض الحيوانات الأخرى، ولا يتمكن الفرد لوحده من سد حاجاته، ويجب أن تكون الحياة على هيئة "شركة" بحيث يساهم الجميع في الواجبات والفوائد، ويقوم نوع من "توزيع العمل" بين الأفراد مع الفارق بين الإنسان وسائر الحيوانات الإجتماعية مثل (نحل العسل) التي توزع بينها بحكم الغريزة والطبيعة. وقد سلبوا أي نوع من التمرد والتخلف، بعكس الإنسان الذي موجود حر ومختار، ويقوم بعمله بحرية، وينجزه باعتباره "واجبا" و"تكليفا". وبعبارة أخرى فإن تلك الحيوانات كما أن حاجاتها اجتماعية فإن غرائزها الاجتماعية تحكمها بصورة جبرية أيضا، والإنسان حاجاته اجتماعية بدون أن تتحكم فيه الغرائز، فإن غرائز الإنسان الاجتماعية موجودة في باطن الإنسان على صورة عدد من "الطلبات" والتي يجب أن

[٤٣]

تهذب في ظل التربية والتعليم.
والحياة الاجتماعية السليمة هي أن يحترم الأفراد قوانين بعضهم البعض وحدودهم وحقوقهم، ويعتبرون العدالة أمراً مقدسا، ويتعاطفوا فيما بينهم، يحب أحدهم لغيره ما يحبه لنفسه، ويكره له ما يكره لها، ويعتمد ويثق بعضهم ببعض، وتكون كيفياتهم الروحية كفيلة بثقتهم المتبادلة ويعد كل شخص نفسه ملتزما ومسؤولا عن مجتمعه، ويظهر منهم التقوى والعفاف في أكثر الأماكن سرية، كما يظهر منهم في الملاء العام، ويحسن كل منهم الآخر بدون أي طمع فيه، وينتهضوا بوجه الظلم والجور، ولا يدعوا للظالم والمفسد مجالا للظلم والإفساد، وأن يحترموا القيم الأخلاقية، ويتحدوا معا كأعضاء الجسد الواحد ويتفقوا.
والشيء الذي يجعل أكثر من كل شيء آخر الحق محترما، والعدالة مقدسة، والقلوب متعاطفة، والثقة متبادلة بين الأفراد، وينفذ بالتقوى والعفاف إلى أعماق وجود الإنسان، ويهب للقيم الأخلاقية الإعتبار، ويوجد جرأة الوقوف بوجه الظلم، ويوصل بين جميع الأفراد كأعضاء الجسد الواحد، ويوحدهم هو الإيمان الديني.

وأن إشعاعات الناس الإنسانية التي تشع كالكواكب في سماء التاريخ الإنساني المليء بالحوادث هي تلك التي تنبع من المشاعر الدينية.

[٤٤]

ج- الحد من المزعجات:

إن حياة البشر كما يوجد فيها الطيبات، والحلاوات، والحصول، والتمتعات توجد فيها الآلام، المصائب، الإندحارات، الأضرار، المرارات، وخيبة الأمل بصور لا إرادية، ويمكن الوقاية من كثير منها أو إزالتها، وإن كان بعد جهد كبير. ومن البديهي أن الإنسان مكلف بمجابهة الطبيعة، يبدل المرارات بالحلاوات، ولكن بعض حوادث العالم لا يمكن الوقاية منها ولا إزالتها، فمثلا الشيخوخة، فالإنسان -شاء أو أبى- يخطو نحو الشيخوخة، ويتجه سراج عمره نحو الإنطفاء، والعجز وضعف الشيخوخة وسائر عوارضها تقطب وجه الحياة. أضف إلى ذلك فكرة الموت والفناء، وغض النظر عن الوجود، والرحيل، وتسليم العالم إلى الآخرين تؤلم الإنسان بصورة أخرى.

إن الإيمان الديني يخلق في الإنسان قوة الجهاد، ويجعل المرارات حلوة، فصاحب الإيمان يعلم أن لكل شيء في العالم حسابا، وإذا كان رد فعله على المرارات بالنحو المطلوب، وبالفرض أن يكون هذا غير قابل للتعويض، فهو يعوض بنحو من الأنحاء من قبل الله تعال . فالشيخ بحكم إلا يكون هذا هو نهاية العمل وأضف إلى ذلك أنه فرد مؤمن يملأ فراغه بالعبادة والاستيناس بذكر الله، فهو يكون محبوبا

[٤٥]

بحيث تكون لذة الحياة في دور الشيخوخة بالنسبة لعباد الله أكثر من دور الشباب، وتتغير صورة الموت في نظر الفرد المؤمن مع أنها تظهر لنظر الفرد غير المؤمن، والموت بنظر مثل هذا الفرد لم يعد بعد عدما وفناء، وإنما هو انتقال من دار فانية عابرة إلى دار باقية خالدة، ومن عالم أصغر إلى عالم أكبر، الموت انتقال من عالم العمل والزرع إلى عالم الثمر والمحصول، ولهذا فإن مثل هذا الفرد يزيل قلقه من جراء الموت، ببذل السعي في أعمال الخير التي تسمى بلغة الدين به "العمل الصالح".

ومن المسلم القطعي لدى علماء النفس أن أكثر الأمراض النفسية الناتجة عن مزعجات الحياة ومرارتها، تشاهد بين الأشخاص غير المتدينين. فالأشخاص المتدينون هم أكثر صيانة من هذه الأمراض بالنسبة قوة إيمانهم، ولهذا فإن إحدى عوارض حياة عصرنا التي ظهرت على أثر ضعف الإيمان الديني هي ازدياد المرضي والأمراض النفسية والعصبية.

[٤٧]

المدرسة ، الفكرة

[٤٩]

* المدرسة ، الفكرة:

ما هي المدرسة أو الفكرة، وكيف تعرف؟ وما هي الضرورة التي تدعو الإنسان باعتباره فردا ، أو عضوا في المجتمع أن يكون تابع لمدرسة، ويلتحق بفكرة ويكون له إيمان؟ وهل أن وجود الفكرة للفرد أو المجتمع الإنساني ضروري؟ وهنا تجب المقدمة.

أن نشاطات الإنسان نوعان: الإلتذاذية والتدبيرية:

فالنشاطات الإلتذاذية هي تلك النشاطات البسيطة التي يقوم بها الإنسان تحت التأثير المباشر للغريزة أو الطبيعة أو العادة -التي هي من طبيعة ثانية- للوصول إلى لذة أو الهروب من ألم. فمثلا يعطش، فيمد يده نحو إناء الماء فيرى خطرا ويهرب. ويرغب لتدخين سيجارة، فيشعل النار فيها.

إن مثل هذه الأعمال، أعمال توافق الرغبة ولها صلة مباشرة باللذة والألم ، فالعمل الملذ يجذب الإنسان إليه بنوع من الجاذبية، والعمل المؤلم يبعد الإنسان عنه بنوع من الدفع.

[٥٠]

والنشاطات التدبيرية هي أعمال لا جاذبية ولا دفع بها في ذاتها، ولا تجر الإنسان نحوها غريزته أو طبيعته، ولا تبعده منها. وإنما الإنسان بحكم العقل والإرادة ومن أجل المصلحة الكامنة فيها أو المصلحة التي يراها في تركها، يقوم بإنجازها أو تركها، أي أن المصلحة هي العلة الغائية والقوة المحركة والمثيرة للإنسان وليست اللذة. فاللذة تعينها الطبيعة، والعقل يعين المصلحة، فاللذة تثير الرغبة والمصلحة تثير الإرادة. والإنسان يتلذ بالأعمال الالتذاذية حين إنجاز العمل، ولكنه لا يلتذ من إنجاز الإعمال المصلحية، ولكنه يفرح من تصور أنه يخطو نحو المصلحة النهائية -التي هي الخير والكمال أو اللذة في المستقبل- ويتقرب منها. وفرق بين عمل يبعث على اللذة والسرور، وبين العمل الذي لا يبعث على اللذة بل هو متعب أحيانا ولكن الإنسان يتحمل أتعابه بالرضا والسرور. فالأعمال المصلحية بسبب بعد النتيجة لم تبعث على اللذة والبهجة، ولكنها مرضية. واللذة والألم من مشتركات الإنسان، كما أن التمني من مختصات البشر. فالرضا والكره والتمني يقع في نطاق المعقولات وفي حوزة تفكير البشر لا في حوزة حواسه وإدراكاته الحسية.

قلنا : إن الإنسان ينجز أعماله التدبيرية بقوة العقل والإرادة بعكس الأعمال الإلتذاذية التي بحكم الحس والرغبة. ومعنى أنها تتم بحكم العقل هو أن قوة العقل الحاسبة ترى الخير والكمال أو اللذة في البعيد، وتكتشف

[٥١]

طريق الوصول إليه والذي يكون صعب المرور أحيانا، وتخطط للوصول إليه. ومعنى أنها تتم بقوة الإرادة هو أن في الإنسان قوة تابعة لقوة العقل والتي تقوم بدور المنفذ لأحكام العقل، وتقوم تارة بتنفيذ الأحكام التي صادق العقل عليها والخطط الفكرية خلافا لكل الرغبات والجاذبيات الطبيعية.

هناك طالب تدعوه طبيعة شبابه إلى النوم والأكل والراحة واللعب والشهوات، ولكن عقله المدبر الذي يفكر من جهة بعاقبة هذه الأعمال الوبيلة، ومن جهة أخرى يفكر بعاقبة الإجتهاد والسهر وغض النظر عن الشهوة واللذة هذه العاقبة التي تؤدى إلى السلامة، وبحكم المصلحة بأمره أن يختار الشق الثاني. وفي هذا الوقت يفضل الإنسان حكم العقل الذي هو مصلحة على حكم الطبيعة الذي هو لذة، وكذلك المريض يكره الدواء، ويتعذب من استعمال الدواء المر والممجوج الطعم، ولكنه يشرب الدواء الممجوج طعمه بحكم العقل الذي يفكر في المصلحة، وبقوة الإرادة السائدة على الرغبات.

فالعقل والإرادة مهما يكونا أكثر قوة يتمكنا من فرض حكمهما على الطبيعة -بالرغم من ميولها بصورة أفضل.

فالإنسان في نشاطاته التدبيرية ينفذ دائما خطة أو نظرية في مرحلة العمل، ومهما كان الإنسان أكثر تكاملا من ناحية العقل والإرادة تكون نشاطاته التدبيرية أكثر من الالتذاذية،

[٥٢]

وتشاهد أحيانا لدى الحيوان نشاطات تشير إلى الأهداف والنتائج البعيدة من قبل بناء الأعشاش أو الهجرات والتزاوج وإنتاج النسل. ولكن لم يكن أي منها عن وعي أو عن معرفة الغرض، ومن جراء التفكير للبحث عن طريق الوصول، واختيار الواسطة، بل تتم بنوع من الإلهام الجبري والغريزي من ما وراء ذلك. والإنسان من ناحية نشاطاته التدبيرية تتسع دائرة نشاطه حتى تضم نشاطه الالتذاذية أي أن التخطيطات المصلحية من الممكن أن تنظم بدقة إلى حيث تنضم اللذات إلى كادر المصالح، وتكون كل لذة مصلحة أيضا بالوقت الذي هي لذة. وكل نشاط طبيعي يكون إطاعة لحكم العقل أيضا بالوقت الذي هو استجابة لدعوة الطبيعة. وإذا كانت النشاطات التدبيرية تغطي على النشاطات الالتذاذية، وإذا كانت النشاطات الإلتذاذية من خطة الحياة التدبيرية الكلية وبرنامجها العام فتتطابق الطبيعة مع العقل والرغبة مع الإرادة.

والنشاط التدبيري بحكم كونه يدور على محور عدد من الغايات والأهداف البعيدة، يحتاج -شاء أم أبى- إلى التخطيط والبرنامج والأسلوب واختيار الوسيلة للوصول إلى المقصد. ولا زال له وجهة فردية، أي شخص واحد، يدبر بنفسه لنفسه، فإن المخطط والمبرمج وصاحب النظرية ومحدد الطريق والأسلوب والوسيلة هو العقل الفردي الذي له صلة بمقدار معلوماته واطلاعاته وما تعلمه، وقوة حكمه.

[٥٣]

ولنفرض أن النشاط التدبيري قد وصل إلى أوج كماله فلا يكفي لصيرورة نشاطات الإنسان إنسانية، فنشاط الإنسان التدبيري هو شرط الإنسانية اللازم، لأن عقل الإنسان وعلمه ووعيه وتدبيره يشكل نصف إنسانيته، ولكنه شرط غير كاف. والنشاط الإنساني يكون إنسانيا تارة فهو بالإضافة إلى التعقل والإرادة يتجه نحو النزعات الإنسانية السامية، ولا يكون في تضاد معها على الأقل، وإلا فإن أكثر النشاطات البشرية الإجرامية تتم بمساعدة التدبير والذكاء والتفكير في النتيجة والتخطيط والنظريات، والخطط الإستعمارية الشيطانية أفضل شاهد على هذا الإدعاء، ففي الإصطلاحات الدينية والإسلامية تسمى قوة التدبير عندما تنفصل عن النزعات الإنسانية والإيمانية وتكون في خدمة الأهداف المادية والحيوانية "نكرا" و "شيطنة"، ولنغض النظر عن هذه الناحية وهي أن النشاط التدبيري لم يكن إنسانيا لزوما، بل إذا كان يدور حول محور الأهداف الحيوانية يكون أكثر خطرا من النشاطات الالتذاذية الحيوانية، فمثلا إن حيوان يفترس حيوانا أو إنسانا من أجل ملأ كرشه، ولكن الإنسان المدبر الحاسب يدمر مدنا ويحرق مئات الآلاف من الناس الأبرياء من أجل غرض في هذا الحد.

نعم، نغض النظر عن هذه الناحية، هل أن أهداف العقل كافية من ناحية مجموع المصالح الفردية؟

[٥٤]

وبعبارة أخرى: ما هي حدود عمل العقل الفردي من ناحية عرض المصالح الفردية؟ ولا بحث في أن قوة العقل والتفكير ضرورية ومفيدة من أجل تدابير الحياة الجزائية المحدودة. فالإنسان يواجه في الحياة أمورا من قبيل اختيار الصديق، اختيار الفرع الدراسي، اختيار الزوجة، اختيار الحرفة، السفر، المعاشرة، النزهة، النشاطات الخيرة، الوقوف بوجه الإنحرافات والإعوجاجات و... فهو محتاج دونما ريب إلى التفكير والتأمل والتدبير، وكلما فكر أكثر وأفضل حصل على نجاح أكثر. ويحتاج أحيانا إلى الاستمداد من تفكير الآخرين وتجاربهم (أصل التشاور). ففي جميع هذه الموارد الجزئية يقوم الإنسان بالتخطيط ثم تنفيذ ذلك.

فكيف ذلك في الدائرة الكلية الواسعة؟ هل يتمكن الإنسان أن يقوم بخطة كلية لجميع قضايا حياته الشخصية، فتضمها جميعا، وتنطبق على جميع مصالح حياته؟ أو أن قدرة التخطيط الفكري فردية وفي نطاق القضايا الجزئية، ومحدودة، والإحاطة بجميع مصالح الحياة التي تضم السعادة الشاملة هي خارجة عن تكليف قوة العقل؟

إننا نعلم أن بعض الفلاسفة كانوا يعتقدون بمثل هذا "الإكتفاء الذاتي"، وقد زعموا أننا اكتشفنا طريق السعادة والشقاء، وسنجعل أنفسنا سعداء بالاعتماد على العقل والإرادة.

[٥٥]

ولكننا نعلم من جهة أخرى أنه لا يوجد في العالم فيلسوفان متحدان في الرأي في معرفة هذا الطريق، فالسعادة ذاتها الغاية الأساسية والنهائية، وتظهر في البداية مفهوما واضحا وبديهيا فهي من أكثر المفاهيم إبهاما من أنه ما هي السعادة؟ وبأي الأشياء تتحقق؟ وما هو الشقاء؟ وما هي عوامله؟ لا زال معروضا بصورة مجهول وظل غير معروف باقيا، لماذا؟ لأنه لا زال البشر نفسه ولا زالت إمكانياته وقابلياته غير معروفة حتى الآن. هل من الممكن أن يبقي البشر مجهولا، وتعرف ماهي سعادته وبأي شيء تتهيأ!

والأكثر من ذلك، إن الإنسان موجود إجتماعي، وقد أوجدت له الحياة الإجتماعية آلاف المشاكل والأمور وعليه أن يحلها جميعا، ويحدد موقفه تجاهها، ولما كان موجودا إجتماعيا فإن سعادته وأهدافه، وملاك خيره وشره، طريقه وأسلوبه اختياره للوسيلة كل ذلك ممزوج بسعادة الآخرين وأهدافهم، وملاك خيرهم وشرهم، وطرقهم وأساليبهم، واختيارهم للوسيلة، ولا يتمكن من ان يختار طريقه بصورة مستقلة عن الآخرين. وعليه أن يبحث عن سعادته في الطريق العام الذي يوصل المجتمع إلى السعادة والكمال.

وإذا أخذنا بنظر الإعتبار موضوع حياة الروح الأبدية الخالدة، وعدم وجود تجربة لدى العقل بالنسبة لنشأة ما بعد النشأة الدنيا يكون الموضوع مشكلا جدا.

[٥٦]

وهنا تطلع الحاجة إلى المدرسة أو الفكرة رأس ضرورتها، أي الحاجة إلى نظرية كلية، وخطة جامعة ومتناسقة ومنسجمة بحيث يكون الهدف الاصلي هو كمال الإنسان وتأمين سعادة الجميع. وتتحدد فيها جميع الخطوط العريضة والأساليب، الوجوبات والمحرومات الطيبات والسيئات، الغايات والوسائل، الحاجات والآلام والعلاجات، والمسؤوليات والتكاليف. وتكون ينبوع إلهام التكاليف والمسؤوليات لجميع الأفراد.

فالإنسان من بداية التكوين، وعلى الأقل من الدور الذي أدي فيه نمو الحياة الاجتماعية واتساعها إلى عدد من الاختلافات (١- يستنتج من مجموع آيات القرآن الكريم أن هذه الاختلافات وأن هذه الحاجات قد ظهرت من زمان نوح النبي، فأكثر الإنبياء لم يكونوا أصحاب شرائع. فليراجع الى تفسير الميزان ذيل الآية ٢٣١ من سورة البقرة {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ....}). كان محتاجا إلى الفكرة، وباصطلاح القرآن الشريعة. وكلما مضى الزمان وتكامل الإنسان اشتدت هذه الحاجة. وكانت النزعات القبلية والعنصرية والقومية والشعبية والعائلية تسود المجتمعات الإنسانية مثل (الروح الجمعية)، وكانت الروح بدورها توجد عددا من الأهداف الجمعية (ولو كانت غير إنسانية) وكانت تهب الاتجاه والوحدة للمجتمع،

[٥٧]

وأن النمو والتكامل العلمي والعقلي قد أضعف تلك الصلات، فالعلم بحكم ميزته الذاتية يميل إلى الفردية، يضعف العواطف والصلات العاطفية. فإن ما يهب الإنسان اليوم -أو بالأحرى لإنسان الغد- الوحدة والاتجاه ويعطيه الهدف المشترك ويكون له ملاك الخير والشر والواجب والحرام هي فلسفة الحياة المختارة الواعية الهادفة المجهزة بالمنطق، وبعبارة أخرى هي الفكرة الجامعة الكاملة.
وأن البشر اليوم يحتاج أكثر من بشر أمس إلى مثل فلسفة الحياة هذه. الفلسفة القادرة على أن تعطيه التعلق بحقائق فوق الفرد ومصالحه.
ولا مجال اليوم للشك في أن المدرسة والفكرة هي من ضروريات الحياة الاجتماعية.
من الذي يتمكن على تخطيط هذه المدرسة وبرمجتها، وبلا شك فإن العقل غير قادر، فهل العقل الجمعي قادر؟ هل إن الإنسان يتمكن من تخطيط مثل هذا بالإستعانة من جميع تجاربه ومعلوماته الماضية والحاضرة ؟ فإذا كنا نعتبر الإنسان أكبر مجهول لنفسه فالأولى أن يكون المجتمع الإنساني والسعادة الإجتماعية أكثر مجهولية. إذاً، ما يجب من العمل؟ وهنا إذا كانت لنا نظرة صادقة حول الوجود والخلقة، ونعتبر نظام الوجود نظاماً متعادلا، وننكر فراغ الوجود وتفاهته يجب أن نعترف بأن جهاز الخلقة العظيم لم يهمل هذه الحاجة العظيمة، أعظم الحاجات هذه، وقد حدد الخطوط العريضة

[٥٨]

لهذا الطريق العام من أفق فوق أفق عقل الإنسان، أي من أفق الوحي (أصل النبوة). إن عمل العقل والعلم هو الحركة داخل هذه الخطوط العريضة، وما أحسن قول ابن سينا في كتاب النجاة، عندما يبين حاجة الناس إلى الشريعة الإلهية المبينة بواسطة إنسان (نبي)، فيقول: "فالحاجة إلى هذا الإنسان في أن يبقي نوع الإنسان، وينحصل وجوده أشد من الحاجة إلى إنبات الشعر على الحاجبين وتقعير الأخمص من القدمين، وأشياء أخرى من المنافع التي لا ضرورة إليها في البقاء، بل إن أكثر ما لها أنها تنفع في البقاء".
أي أن جهاز الخلقة العظيم الذي لا يهمل الحاجات الصغيرة وغير الضرورية كيف يمكن أن يهمل أكثر الحاجات ضرورة!
ولكننا إذا كنا محرومين من النظرة الصادقة بالنسبة للوجود والخلقة، علينا التسليم بأن الإنسان محكوم بالحيرة والضلال، وكل خطة وفكرة تظهر من جانب الإنسان الحائر في ظلمة هذه الطبيعة إلا اللهو والضلال.
كما يظهر في الحديث السابق ضرورة وجود مدرسة أو فكرة فإنه يتضح أيضا ضرورة التحاق الفرد بمدرسة أو فكرة.
ولكن التحاق الفرد بالفكرة يتخذ لنفسه صورة واقعية عندما يتخذ لنفسه شكل "الإيمان" والإيمان حقيقة لا يأتي

[٥٩]

عن طريق القوة أو من أجل المصلحة. من الممكن أن يخضع بالقوة إلى أمر ما ويسلم، ولكن الفكرة ليست إخضاعية، الفكرة تقبليه وجاذبية، الفكرة تطلب الإيمان.
فالفكرة العملية، يجب أن تستند من جهة إلى نوع من النظرة العالمية لتتمكن من إقناع العقل وتغذية الفكر، ومن جهة أخرى يجب أن تكون قادرة على استنتاج أهداف من نظرتها العالمية من الناحية المنطقية بحيث تكون لها جاذبية، وفي هذا الوقت يتصافح الحب والإقناع اللذان هما العنصران الأساسيان للإيمان يدا بيد ويقوما ببناء العالم.
وتعرض هنا عدة أمور نضطر إلى عرضها بصورة مجملة وموجزة، ونترك تفصيلها لفرصة مناسبة.
أ- الأفكار نوعان: إنسانية وجماعية -فالأفكار الإنسانية تعني الأفكار التي يكون مخاطبها نوع الإنسان لا القوم أو العنصر أو طبقة خاصة، ولها داعية نجاة نوع الإنسان، لا نجاة وتحرير جماعة أو طبقة معينة، والخطة التي تعرضها تشمل جميع الناس لا فرقة معينة، والمساندون والمدافعون الذين تجلبهم هم من بين جميع الطبقات والجماعات والشعوب لا من بين جماعة أو طبقة معينة.
والفكرة الجماعية بالعكس ، فإن مخاطبها هم الجماعة أو طبقة خاصة وهي تدعو لنجاة وتحرير تلك الجماعة أو سيادتها وأفضليتها، ومخاطبتها أيضا تلك الجماعة فقط، والخطة التي

[٦٠]

تعرضها خاصة بتلك الجماعة، وتجذب المساند والمدافع والجندي من بين تلك الجماعة فقط.
إن كلا من هذين النوعين من الفكرة مبني على نوع من النظرة حول الإنسان. وإن فكرة عامة وإنسانية كالفكرة الإسلامية لها نوع من المعرفة عن الإنسان التي يعبر عنها بالفطرة، ومن وجهة نظر الإسلام فإن للإنسان في مجري الخلقة، وقبل تأثير العوامل التاريخية والعوامل الإجتماعية بعد وجودي خاص، وقد أعطيت له قابليات راقية تميز عن الحيوان وتهب له الهوية. ووفقا لهذه النظرية فإن الإنسان يتمتع في أصل الخلقة بنوع من الشعور والضمير النوعي الموجود عند جميع الناس، وقد أعطاه ذلك الضمير الفطري تعينا نوعيا وصلاحية الدعوة وأن يكون مخاطبا، وأعطاه الحركة، وتبدأ هذه الأفكار دعوتها بالإستناد إلى ضمير نوع الإنسان الفطري المعين، وتبدع الحركة.
ولبعض الأفكار نظرة أخرى عن الإنسان، فالإنسان النوعي من وجهة نظر هذه الأفكار لا يمتلك صلاحية الدعوة وأن يكون موضع خطاب أو حركة. لأن شعور الإنسان وضميره ونزعاته تتحدد تحت تأثير العوامل التاريخية في الحياة الوطنية والقومية، أو تحت تأثير العوامل الإجتماعية في موضع الإنسان الطبقي، فالإنسان المطلق -بغض النظر عن العوامل التاريخية أو الاجتماعية الخاصة -ليس له شعور وضمير ولا

[٦١]

صلاحية له للدعوة والخطاب، بل هو موجود انتزاعي لا عيني. فالماركسية والفلسفات الوطنية والقومية تقوم على مثل هذه النظرة عن الإنسان. وموضع رغبة هذه الفلسفات هي المصالح الطبقية أو العواطف القومية والعنصرية، وعلى الأكثر الثقافة القومية.
وبدون شك فإن الفكرة الإسلامية من النوع الأول، وموضع رغبتها هي فطرة الإنسان. ولهذا فإن مخاطب الإسلام هو "الناس" بصورة عامة (١- يطرأ خطأ تارة على مفهوم هذه الكلمة (عامة الناس) وتؤخذ مرادفه "للجماهير" التي هي النقطة المقابلة للطبقات الممتازة، ولما كان مخاطب الإسلام هم "الناس" فقد يدعي أن دين الإسلام هو دين جماهير الناس، وخلال ذلك تعتبر هذه فضيلة للإسلام، ولكن علينا أن نعلم أن ما هو واقع وفضيلة للإسلام هو أن الإسلام قد قام بحماية جماهير الناس، لا أنه جعل مخاطبية جماهير الناس فقط وفكرته فكرة جماعية وطبقية. وما هو فضيلة بصورة أكثر هو أن الإسلام بالإضافة إلى الطبقات التي تدفع الفائدة آثار الضمائر لصالح الطبقات المحرومة من بين نفس الطبقات المستفيدة ذات رؤوس الأموال والسلطة بالإستناد إلى الفطرة الإنسانية أحيانا). لا طبقة أو جماعة خاصة.

[٦٢]

وقد تمكن الإسلام بصورة عملية أن يجذب المدافع والسند من بين جميع الجماعات حتى من بين الطبقة التي قام بمحاربتها، أي طبقة الملأ والمترفين حسب اصطلاح القرآن، فأخذ الجنود من طبقة ضد تلك الطبقة نفسها، ومن جماعة ضد مصالح تلك الجماعة، بل إثارة فرد على عمله الشخصي التافه، هو عمل قام الإسلام به بكثرة في التاريخ ويقوم به. والإسلام باعتباره دينا ينفذ إلى أعمق طيات وجود الإنسان، ومن جهة أخرى يعتمد على فطرة الإنسان الإنسانية قادر على أن يثير الفرد على أعماله التافهة ويهيجه، ويوجد ثورة في النفس على النفس، والتي أسمها "التوبة" فالأفكار الجماعية والطبقية تتعلق قوتهم الثورية بإثاره الفرد على فرد آخر أو طبقة على طبقة أخرى فقط. ولا تتمكن أبدا من إقامة ثورة الفرد على نفسه، كما أنها لا تتمكن أن تجعل للفرد رقيبا من نفسه يراقبه ويسيطر عليه. والإسلام باعتباره دينا، وباعتباره الدين الخاتم قد جاء أكثر من أي دين سماوي آخر لإقامة آخر لإقامة العدالة الإجتماعية (١- {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ .....}(الحديد/٢٥)). وغرضه -قهرا- نجاة المحرومين والمستضعفين، والحرب والقتال مع الظالمين. ولكن مخاطب الإسلام لم يكن المحرومين والمستضعفين فقط.

[٦٣]

كما أنه لم يجتلب حماية من هذه الطبقة فقط، فالإسلام قد أخذ الجندي بشهادة التاريخ حتى من الطبقات التي قام بمحاربتها بالاستناد إلى قوة الدين من جهة، والاعتماد على فطرة الإنسان والإنسانية من جهة أخرى، فالإسلام هو نظرية انتصار الإنسانية على الحيوانية، والعلم على الجهل، والعدالة على الظلم، والمساواة على التمييز، والفضيلة على الرذيلة، والتقوى على الهرج، والتوحيد على الشرك. وأن انتصار المستضعفين على الجبابرة والمستكبرين هو أحد مظاهر هذه الانتصارات.

ب- تعقيبا للبحث السابق يجب أن يعرض هذا لسؤال: هل أن للثقافة الإنسانية الأصيلة ماهية وحدوية؟ أو لم يكن هناك ثقافة وحدوية، وإنما للثقافة ماهية قومية أو شعبية أو طبقية. وما له وجود أو سوف يوجد في المستقبل هي الثقافات لا الثقافة.

وهذا الموضوع يتبع أنه هل أن نوع الإنسان يتمتع بفطرة وحدوية وأصيلة وأن تلك الفطرة الأصيلة الوحدوية تعطي الإنسان الوحدة، أو لا وجود لمثل هذه الفطرة الوحدوية، وأن الثقافات هي صنائع العوامل التاريخية القومية والجغرافية أو أنها صنيعة النزعات المصلحية الطبقية، فالإسلام باعتباره يقول بالفطرة الوحدوية في العالم. يؤكد الفكرة الوحدوية والثقافة والوحدوية.

[٦٤]

ج- من البديهي أن الفكرة الإنسانية لا الجماعية، والفكرة الوحدوية لا المبتنية على تقسيم الإنسان وتجزئته، والفكرة الفطرية لا المصلحية هي الفكرة الوحيدة التي يمكنها أن تعتمد على القيم الإنسانية وأن تكون لها ماهي إنسانية.

د- هل أن كل فكرة تابعة لمكان وزمان؟ وهل أن الإنسان محكوم بأن تكون له فكرة خاصة في كل وضع وزماني متغير وفي الظروف المحيطية المكانية المختلفة؟ هل أن أصل الإختلاف (بحسب المنطقة والمكان) وأصل النسخ والتبديل (بحسب الزمان) يتحكم بالفكرة؟ أو أن فكرة الإنسان كما أنها من الناحية الجماعية واحدة لا آحادا فهي من الناحية المكانية والزمانية واحدة أيضا لا آحادا وبعبارة أخرى فهي كما أنها من الناحية الجماعية عامة لا خاصة فمن الناحية الزمانية والمكانية مطلقة لا نسبية.

والفكرة التي تكون مطلقة أو نسبية بلحاظ الزمان والمكان فهي بدورها من ناحية تابعة إلى موضع رغبتها فطرة الإنسان النوعية وهدفها سعادة نوع الإنسان أو أن موضع رغبتها المصالح الجماعية والعواطف القومية والطبقية.

ومن ناحية أخرى تابعة إلى أننا نعرف ماهية التطورات الاجتماعية ماذا هي؟ هل أنها عندما يتطور المجتمع ويترك دورا وراءه ويبدأ بدور جديد يقوم المجتمع بتغيير الماهية، وبالتالي تسوده قوانين مغايرة للقوانين السائدة سابقا، كما أن الماء- مثلا- بعد صعود درجة الحرارة يتبدل إلى بخار،

[٦٥]

ويتحكم عليه بعد ذلك قوانين الغز لا قوانين السوائل أو أن التطورات والتكاملات الاجتماعية لم تكن من هذا القبيل فقوانين المجتمع التكاملية الأصلية والمدار الذي تتطور فيه ثابتة. فالمجتمع يغير المرحلة والمكان لا يغير المدار وقانون التكامل كما أن الحيوانات تتطور وتتكامل من الناحية الحياتية، ولكن قوانين التكامل ثابتة دائما.

ومن ناحية فإن هذا الموضوع من أن الفكرة من الناحية الزمانية والمكانية مطلقة أو نسبية تابعة إلى أن نظرة تلك الفكرة للعالم أية نظرة للعالم هي؟ علمية أو فلسفية ودينية، والفكرة العلمية لا يمكن أن تكون ثابتة باعتبارها مبتنية على نظرة للعالم غير ثابتة، بعكس النظرة الفلسفية للعالم المبتنية على القواعد الأساسية والبديهيات الأساسية، أو النظرة الدينية للعالم المبتنية على الوحي والنبوة.

وهنا كما أن لا مجال لبحث موضوع الفطرة التي هي " أم المواضيع" في المعارف الإسلامية، فلا مجال أيضا لعرض دراسة تطورات المجتمع. ولكن في القسم الرابع من هذا الكتاب عندما نبحث عن المجتمع والتاريخ سوف نبحث تطورات المجتمع وعلاقته بالفطرة.

هـ- هل أن أصل الثبات يتحكم في الفكرة نفسها أو أصل التغيير؟ كان الحديث آنفا في أن فكرة الإنسان هل تختلف باختلاف الأزمنة أو الأمكنة؟ وكان الموضوع المعروض هناك

[٦٦]

هو موضوع نسخ الفكرة وتبديلها، ولكن الآن يعرض موضوع آخر، وهو موضوع تطور فكرة ما وتغييرها. وهو هل أن الفكرة سواء من ناحية المحتوي عامة أو خاصة؟ مطلقة أو نسبية؟ وهي من ناحية أنها ظاهرة، والظواهر متغيرة ومتطورة ومتكاملة هل هي في تطور وتحول دائم؟ وهل أن واقعية الفكرة حين الولادة تختلف عن واقعيتها في أدوار النمو والأبهة أي أنها يجب أن تكون دائما موضع حك وإصلاح وتجميل وتزيين وإعادة نظر من قبل القادة والمعتنقين للفكرة كما نشاهد ذلك في الأفكار المادية المعاصرة، وإلاّ فسوف تتهرأ وتكون عتيقة وتفقد صلاحيتها؟ أو أنه من الممكن تنظيم فكرة بشكل، وتعتمد على الخطوط العريضة لحركة الإنسان والمجتمع بحيث لا تحتاج إلى أية اعادة نظر وحك وإصلاح من قبل القادة. ودور القادة والمفكرين ينحصر فقط في "الاجتهاد" في الفحوى والمحتوى، والتكامل الفكري يكون في ناحية الاجتهادات لا في نص الفكرة؟

وإجابة هذا السؤال تتضح من الإجابة على الأسئلة السابقة (١- كنا قد بحثنا في مقالة "ختم النبوة" في الجزء الأول من كتابنا "محمد خاتم بيامبران" من منشورات "حسينية الإرشادات" والذي طبع بعد ذلك بصورة رسالة مستقلة، حول كلية الفكرة الإسلامية وإطلاقها، ودور الاجتهاد في تطبيقها في الظروف المكانية المختلفة والأوضاع الزمانية المتغيرة، وأن الذي يتطور ويتكامل هو الاجتهاد الإسلامي لا الفكرة الإسلامية. من شاء فليراجع هناك).

* الإسلام، المدرسة الجامعة الشاملة:

إن الإسلام الذي قام على مثل هذه النظرة للعالم هو مدرسة جامعة تتمسك بالواقع. وقد اهتم الإسلام إلى جميع جوانب حاجات الإنسان الدنيوية أو الآخروية، الجسمية أو الروحية العقلية والفكرية أو العاطفية، الفردية أو الاجتماعية.
ويشكل مجموع التعاليم الإسلامية من ناحية واحدة ثلاثة أقسام:
أ- أصول العقائد: أي الأشياء الواجب على كل شخص السعي حول حصول العقيدة بالنسبة لها. والعمل الذي يقع على عاتق الإنسان في هذا المجال هو من نوع العمل التحقيقي العلمي.
ب- الأخلاقيات: أي الخصال التي يجب على الفرد المسلم أن يتحلى بها، ويبعد نفسه من أضرارها، والعمل الذي يقع على عاتق الإنسان في هذا المجال هو من نوع مراقبة النفس وبنائها.

[٦٨]

ج- الأحكام: أي الأوامر التي تتعلق بنشاطات الإنسان الخارجية والعينية وهي تشمل النشاط المعاشي والمعادي والدنيوي والأخروي والفردي والإجتماعي.
وأصول العقائد الإسلامية خمسة باعتقاد مذهب الشيعة:
التوحيد، العدل، النبوة، الأمامة، المعاد.
والإسلام لا يرى التقليد والتعبد كافيا حول أصول العقائد التي يجب على كل شخص أن يحصل العقيدة الصحيحة حولها، بل يوجب على كل فرد أن يبحث عن صحة تلك العقائد بنفسه وبصورة مستقلة وبحرية. ومن وجهة نظر الإسلام لا تنحصر العبادة بالعبادة البدنية كالصلاة والصوم أو بالعبادة المالية كالخمس والزكاة هناك نوع آخر من العبادة أيضا وهي العبادة الفكرية، فالتفكير أو العبادة الفكرية إذا كانت في سبيل توعية الإنسان ويقظته فهي أفضل وأسمى من عبادة عدة سنوات.

زلل الفكر في رأي القرآن:
إن القرآن الكريم الذي يدعو إلى التفكير والاستنتاج الفكري ويعتبر التفكير عبادة، ولا يرى أصول العقائد صحيحة إلا بالتفكير المنطقي، يهتم بموضوع أساسي وهو أن زلات البشر الفكرية من أين تأتي؟ وأين تقع

[٦٩]

جذور الأخطاء والضلالات؟ فإذا أراد الإنسان أن يفكر صحيحا بحيث لا يصادف خطأ وانحرافا ماذا عليه أن يعمل؟.
قد ذكر في القرآن الكريم عددا من الأمور باعتبارها موجبات الأخطاء والضلالات وعللها نذكرها كما يلي:
١- الإعتماد على الظن بدل العلم واليقين:
يقول القرآن الكريم: {وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ ..}(الأنعام//١١٦). يخالف القرآن الكريم في آيات كثيرة اتباع الظن بشدة، ويقول: {وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ...}(الإسراء/٣٦).
وقد أصبح من المسلم اليوم من الناحية الفلسفية أن أحد العوامل الرئيسية لحدوث الأخطاء والإشتباهات هو هذا. وقد قرر ديكارت من بعد القرآن بألف عام وجعل هذا أول أصوله المنطقية وقال:
لا أرى كل شيء حقيقة حتى يكون لي بديهيا، واحذر من العجلة وسبق الذهن والميول، ولا أقبل إلا المتميز الواضح إلى حد بحيث لا يبقي فيه شك (١- سير حكمت در أوربا، الجزء الأول).

[٧٠]

٢- الرغبات والميول النفسية:
إذا أراد الإنسان أن يحكم بصورة صحيحة عليه أن يكون محايدا في الموضوع الذي يفكر حوله، أي أنه يحاول أن يكون باحثا عن الحقيقة ويخضع للأدلة والوثائق كالقاضي تماما الذي ينظر في أضباره عليه أن يكون محايدا بالنسبة لطرفي الدعوى. فإذا كان القاضي طرف الأدلة التي لمصلحة الطرف الآخر وضد ذلك الطرف بصورة تلقائية، وهذا ما يسبب خطأ القاضي.
فإذا لم يحتفظ الإنسان بحياد نفسه تجاه نفي موضوع أو إثباته، وتكون رغبته النفسية تنجاز إلى جهة تدور عقربة فكرة تلقائيا وبدون أن يشعر نحو ميوله النفسية ورغباتها. ولهذا يعتبر القرآن هوى النفس كالظن أحد عوامل الزلل، يقول في سورة النجم: {.. إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ ..}(النجم/٢٣).
٣- العجلة:
إن كل حكم وإبداء رأي يحتاج إلى بعض الوثائق اللازمة، ولا زالت الوثائق الكافية للقضية لما تجتمع، فكل إبداء رأي بصورة عجلة يؤدي إلى الزلة، ويكرر القرآن الكريم إشارته إلى قلة مادة البشر العلمية وعدم كفايتها

[٧١]

لبعض الأحكام الكبيرة، ويعتبر إبداء القطع بعدا عن الاحتياط. فمثلا يقول: {.. وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً}(الإسراء/٨٥).
وقال الأمام الصادق عليه السلام: إن الله خص عباده وأدبهم في آيتين من القرآن أحداهما: لا يصدقوا بشيء ما لم يحيطوا به علما ( العجلة في التصديق)(٢- كان على المؤلف الشهيد قدس سره أن يقول: "عدم العجلة في التصديق" أو النهي عن .. الترجمان.).
والأخرى: لا ينكروا ويردوا شيئا ما لم يحيطوا به علما إلى مرحلة اليقين (العجلة في الإنكار)(٢- وهذا كالمثال السابق. الترجمان.).
وقال الله في آية: {..أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لاَ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ..}(الأعراف/١٦٩). وقال في آية أخرى: {بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ}(يونس/٣٩).
٤- التمسك بالسنة والنظر إلى الماضي:
أن الإنسان بحكم طبيعته الأولى عندما يرى فكرة أو

[٧٢]

عقيدة خاصة كانت موضع قبول الأجيال الماضية يتقبلها تلقائيا دون أن يعطي مجال التفكير لنفسه، فالقرآن ينبه على ألا تقبلوا متقبلات الماضين وموارد تصديقهم قبل قياسها بمقياس العقل. وليكن لكم استقلال فكري أمام مصدقات الماضين، ففي سورة البقرة الآية ١١٧٥ يقول: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ }.
٥- النزعة الشخصية:

إن إحدى موجبات زلل الفكر الأخرى هي التمسك بالشخصيات (النزعة الشخصية) فالشخصيات التاريخية العظيمة أو المعاصرة يتركون أثرا على أفكار الآخرين وإراداتهم من ناحية عظمة نفوسهم، وفي الحقيقية أنهم يحتلون فكر الآخرين وإراداتهم، فالآخرون يفكرون بما يفكر هؤلاء، ويقررون بما يقرر هؤلاء، ويفقد الآخرون أمامهم استقلالهم الفكري والإرادي.
فالقرآن الكريم يدعونا للاستقلال الفكري، ويعتبر التقليد الأعمى من العظماء والشخصيات موجبا للشقاء الأبدي. ولذا فهو ينقل عن لسان الذين ضلوا عن هذا الطريق بأنهم يقولون يوم القيامة: {وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا}(الأحزاب/٦٧).

[٧٣]

مصادر التفكير في الإسلام

إن القرآن الذي يدعو إلى التفكير والتأمل فقد أشار إلى مصادر التفكير بالإضافة إلى إشارته إلى طرف زلل الفكر. أي أنه أشار إلى المواضيع التي ينبغي للإنسان أن يعمل فكره فيها ويستفيد منها باعتبارها مصادر للعلم والاطلاع.
وقد خالف الإسلام بصورة عامة صرف الطاقة الفكرية في المواضيع التي لا ثمرة فيها سوى إتعاب الفكر، أي التي لم تنفتح للإنسان طريق التحقيق فيها، وكذلك المواضيع القابلة للتحقيق بالغرض ولكنها لا تفيد الإنسان.
فالنبي الكريم دعا العلم الذي لا يفيد كسبه ولا يضر تركه علما تافها، ولكن العلوم التي فتحت فيها أبواب التحقيق وهي بالإضافة إلى ذلك مفيدة أصبحت موضع تأييد وتشجيع. إن القرآن الكريم يشير إلى ثلاثة مواضيع مفيدة (١- يعرض مواضيع المعرفة ومصادرها بالتفصيل في رسالة "شناخت در قرآن" (المعرفة في القرآن) والتي ذكرناها آنفا وسوف تصدر عما قريب إن شاء الله).

١- الطبيعة:

ذكرت آيات كثيرة في جميع القرآن وجوب التفكير الدقيق

[٧٤]

والاستنتاج حول الطبيعة أي الأرض والسماء والنجوم، والشمس والقمر، والسحاب والمطر، والرياح وسير السفن في البحار، والنباتات، والحيوانات، وبالتالي كل أمر محسوس يشاهد الإنسان حواليه، ونذكر آية منها على سبيل المثال: {قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ}(يونس/١٠١).

٢- التاريخ:

تدعو آيات كثيرة في القرآن إلى دراسة الأقوام، وتقدم ذلك كمصدر لكسب العلم، وإن تاريخ البشر وتطوراته من وجهة نظر القرآن يجري وفقا لعدد من السنن والنواميس، فالعزة والذلة، والنجاحات والاندحارات، والسعادة والشقاء في التاريخ لها حساب دقيق ومنظم، ومن الممكن أن يسيطر الإنسان على التاريخ الحاضر بمعرفة تلك الحسابات والقوانين، والاستفادة منه لصالح نفسه وصالح الناس المعاصرين، وهذه آية على سبيل المثال: {قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ}(آل عمران/١٣٧).

٣- ضمير الإنسان:

ويذكر القرآن الضمير الإنساني باعتباره مصدرا لمعرفة

[٧٥]

خاصة. ومن وجهة نظر القرآن، فإن جميع الخليقة هي آيات آلهية وعلائم وآثار من أجل كشف الحقيقة، فالقرآن يعبر عن العالم الخارجي من الإنسان بـ"الآفاق" وعن عالم داخل الإنسان بـ"الأنفس"، ويشير من هذا الطريق إلى أهمية الضمير الإنساني الخاصة، وقد ظهر من هنا اصطلاح الآفاق والأنفس في الأدب الإسلامي (١- {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ..}(فصلت/٥٣).).
إن "كنت" الفيلسوف الألماني قال جملة لها شهرة عالمية، وقد كتبت نفسها على صخرة قبره، يقول: "شيئان يثيرا إعجاب الإنسان بشدة: أحدهما: السماء المليئة بالنجوم فوق رؤوسنا. والآخر: الضمير والوجدان المستقر في باطننا."